بعض مظاهر الرخاء والازدهار الحضاري لدى المجتمع السبئي في ضوء المصادر اليونانية والإسلامية

دراسة تاريخية مقارنة

أ.م.د. أحمد صالح العبادي*

dr.ahmad2012@tu.edu.ye

الملخص:

تناول البحث ما كان عليه المجتمع السبئي من الثراء والرخاء وخصب الأرض والازدهار الحضاري في المصادر اليونانية القديمة، ومقارنة ذلك بما ورد في المصادر الإسلامية، وتوصل البحث إلى وجود تقارب كبير بين ما ورد في المصادر اليونانية والمصادر الإسلامية في هذا الشأن، وذلك يدل على أن ما ورد في المصادر الإسلامية عن ثراء السبئيين وازدهار حضارتهم وخصب أرضهم ليس ضربًا من الخيال والخرافات والأساطير والمبالغات، كما يعتقد بعض الكتاب.

الكلمات المفتاحية: المجتمع السبئي؛ خصب الأرض؛ ازدهار حضاري؛ المصادر اليونانية؛ المصادر الإسلامية.

* أستاذ التاريخ القديم المشارك - قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة ذمار - الجمهورية اليمنية.

الآداب | مجلة علمية فصلية محكمة
تعنى بالدراسات والبحوث الإنسانية
(EISSN): 2707-5192 ISSN: 2616-5864

Some of the prosperity and Civil prostitution of the Shibean Community in the Light of Greek and Islamic Sources: A Historical Comparative Study

Dr. Ahmed Saleh Al-Abbadi*

dr.ahmad2012@tu.edu.ye

Abstract:

The current research has explored the factors like richness of the vitality, prosperity, earth's escalation and civil prostitution in the ancient Greek sources, compared to what was received in the Islamic sources. The research finds a large convergence between the Greek and Islamic sources in this regard, which indicates that the Islamic sources about the Shibean, the prosperity of their cities and the enrichment of their land is not fantasy, imagination, legends and adults, as some writers are thought.

Key Words: Shibean Community; Land Fertility; Prosperity; Greek Sources; Islamic Sources.

المقدمة ومشكلة الدراسة:

تعد الدولة العربية السبئية من أكبر الدول التي عرفتها الجزيرة العربية، إذ كانت مركزًا تجاريًا مهمًّا؛ لاحتكارها التجارة بين الهند وبلاد الحبشة ومصر وبلاد الشام، فضلًا عن تحكمها بإنتاج الأرض السبئية من المواد العطرية، وعلى رأسها البخور والمر، والتحكم بطريق التجارة البري بين جنوب الجزيرة وشمالها (طريق القوافل التجارية)،أو طريق البخور.

وتفيد المصادر النقشية بأن الدولة السبئية كانت زراعية قبل أن تكون تجارية، إذ مارس السبئيون الزراعة بمهارة عالية، تشهد بذلك الآثار المادية التي خلفتها وراءها تلك الدولة، والتي

*Associate Professor of Old History, Department of History, Faculty of Arts, Thamar University, Republic of Yemen.

تدل على تقنية بارعة في السيطرة على مياه الأمطار، من خلال بناء السدود، التي أبرزها سد مأرب، ومهارة في بناء قنوات الري والتحكم بها بطرق وأساليب هندسية غاية في التطور والمهارة، مما يدل على التطور الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع المدني السبئي الذي بلغ مستوى رفيعًا من الازدهار الحضاري.

ومن الأمور التي شدت انتباه الباحث ذلك الوصف العجيب الذي ورد في كتابات اليونان منذ النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد، عن ثراء المجتمع السبئي وخصب أرضه ورخائه وازدهاره الحضاري ورغد عيشه وتطور الحياة المدنية فيه، والأمانة واحترام العهود عند العرب، وبخاصة لدى المجتمع السبئي، كما لاحظ الباحث أن المصادر الإسلامية المدونة أكدت ما أوردته المصادر اليونانية، وبصورة متقاربة تصل إلى درجة التطابق تقريبًا؛ لذلك وجد الباحث نفسه مندفعًا لدراسة هذا الموضوع دراسة مقارنة يفيد منها الباحث المتخصص والقارئ الشغوف بقراءة التاريخ العربي السبئي.

وتفيدنا هذه الدراسة أيضا في الرد على بعض المستشرقين والكتاب غير المتخصصين الذين يرون أن ما أوردته المصادر الإسلامية عن العرب وازدهار حضارتهم قبل الإسلام يعد ضربًا من الخيال والخرافات التي لا يصدقها العقل، فنرد على مثل تلك الآراء بأن المصادر اليونانية التي تعد مصادر الحضارة الأوروبية سبق لها أن تحدثت بإعجاب كبير عن حسن تعامل العرب، واحترامهم للعهود والمواثيق، وثرائهم، وتمدنهم، وازدهار حضارتهم، وسيطرتهم على اقتصاديات العالم القديم، منذ النصف الثاني من الآلف الأول قبل الميلاد، وقبل مجيء الإسلام وتدوين المصادر الإسلامية بحوالي ألف ومائتي عام.

أولًا: بعض مظاهر الخصب والثراء والرخاء ورغد العيش لدى المجتمع العربي السبئي، كما وردت في كتابات اليونان.

يحدثنا Agatharchides- أغاثارخيدس الكنيدي- المتوفى عام (120 ق.م) بقوله: لا يبدو أن ثمة شعبًا أغنى من السبئيينوالجرهائيين، فقد كانوا وكلاء لكل شيء يقع تحت اسم النقل من

آسيا وأوروبا، وأنهم الذين جعلوا سوريا البطلمية غنية بالذهب، وأتاحوا للتجار الفينيقيين تجارة رابحة وآلافًا من الأشياء الأخرى، وأن الجرهائيين نافسوا التجار السبئيين بالتجارة، وأن (الجرهاء)[1] كانت تعد محطة تجارية أساسية على الساحل الشرقي لبلاد العرب[2]، ويذكر أغاثارخيدس أن السبئيين هم الذين أضفوا على جزيرة العرب صفة (السعيدة) -التي تكررت لدى الكتَّاب اليونان والرومان فيما بعد- وأن جنوب الجزيرة العربية يعد بحق أكثر بلاد العرب خصبًا، إلا أن ثراء تلك البلاد يرجع إلى توفر الطيوب والتوابل بها بصورة غير عادية، وهي التي سببت الثراء الضخم للسبئيين، فساحل البحر ينتج البلسم والقرفة ونباتات عطرية أخرى، وتوجد داخل البلاد غابات من البخور، والمر، والقرفة، وخيار الشنبر، وقصب الطيب، والنخيل الشذِي (الكاذي)، وغير ذلك من النباتات العطرية، وفضلًا عن كل ذلك فإن تجار تلك البلاد يستوردون البخور والمر ومنتجات بلاد الساحل المقابل لبلادهم (بلاد الحبشة والصومال)، ويرجع ثراء السبئيين الواسع إلى ممارستهم لتجارة الطيوب والتوابل منذ قرون قديمة، وهكذا تمكن السبئيون من جمع كميات كبيرة من الذهب والفضة في بلادهم[3].

وفي وصف الحياة المعيشية للسبئيين وتمدنهم، يقول أغاثارخيدس: إنهم كانوا يشربون بكؤوس ذهبية، بل إن الأرائك والأسرة والمقاعد التي كانوا يقعدون عليها كانت مرصعة بالفضة، واتسم سائر الأثاث المنزلي الذي يستعملونه بفخامةٍ لا يكاد يصدقها العقل، وأما مداخل منازلهم فقد زينوها بأعمدة طويلة، بعضها مذهب وبعضها الآخر مزين بتيجان تحمل رسومًا فضية[4].

ويضيف أغاثارخيدس: وإلى جانب تجارة السبئيين، فإن موانئهم على المحيط الهندي كانت ملاذًا ومرافئا للعديد من السفن القادمة من بلدان الشرق والبلاد المجاورة، ومن الواضح أن هذه البلاد كانت مركزًا لتجارة واسعة النطاق، جزء منها كان يتم عبر البحر، وأما الجزء الأكبر منها فكان ينقل بواسطة القوافل التجارية البرية عبر أراضي المعينيين، ثم الى البتراء[5] في أراضي الأنباط.

أما إيراتوستنيس –**Eratosthnes**– (276 196- ق.م)، فقد تحدث عن بلاد السبئيين وذكر أنها تسقيها أمطار الصيف، وتزرع مرتين في السنة، وتوجد بها بعض الأنهار (السيول) التي تروي الأرض الزراعية، وتصب في البحيرات (السدود)، وذكر أن خصب البلاد حسن جدًا، وبها حاصلات متعددة، وتنتج العسل بكميات كبيرة، وبها كثير من قطعان الماشية، وأنها تمتاز بكثرة سكانها، وعاصمة سبأ (**Mariaba**) مأرب، التي تعد أكبر مدن السبئيين، وجميع مدنها يحكمها ملك واحد، وهي تنعم بكل مظاهر الرخاء والازدهار، وتزينها القصور والمعابد والهياكل الجملية[6].

ويذكر أرثميدوروس- **Arthemidorus**- الذي اشتهر خلال المدة (40-100ق.م)، أن بلاد السبئيين توجد بها أعداد كبيرة من السكان، وأنها أكثر الأقطار خصبًا، وتنتج المر واللبان والقرفة، وعلى الساحل يوجد البلسم، وبها النخيل الشذِي (الكاذي)، وقصب الطيب (قصب الذريرة)، والأقوام الساكنون هناك يتسلمون أحمالًا من الطيوب، ويقومون بتسليمها لأقوام آخرين ينقلونها حتى سوريا وبلاد ما بين النهرين[7].

ويعمل السكان إما في زراعة الأرض وإمافي تجارة الطيوب، سواء تلك التي تنتجها بلادهم أم ما يرد إليهم من بلاد الحبشة، إذ يقومون بإحضار الطيوب من بلاد الحبشة بقوارب جلدية كانوا يمخرون بها المضيق (مضيق باب المندب)، كماأن الطيوب متوفرة بصورة كبيرة في كل بلاد سبأ، لدرجة أن القرفة وخيار الشنبر، وغيرهما من الطيوب تُحرق في هذه البلاد كحطب للنار، كما يوجد في أرض سبأ اللاريم(**Larimaum**)، وهو من الطيوب ذكية الرائحة.

وقد غدا السبئيون والجرهائيون بتجارة المواد العطرية أغنى أهل الأرض قاطبةً؛ لذلك كان لديهم أثاث ومصنوعات أخرى بالغة الفخامة، كالآنية المصنوعة من الذهب والفضة، والأسرّة، والموائد الصغيرة، والكؤوس، فضلًا عن فخامة منازلهم الرائعة التي كانت جدرانها وسقوفها متباينة الألوان، بمايرصع بها من العاج، والذهب، والفضة، والأحجار الكريمة[8].

وأما ديودوروس الصقلي- **Diodorus of sicilus** –(80-30 ق. م)فقد أورد وصفًا رائعًا لبلاد العرب الجنوبية، وما كان عليه العرب السبئيون من المدنية والثراء والرخاء ورغد العيش

والحضارة، منذ عصور سحيقة، إذ يقول: وأرضهم تنتج كل شيء، وهي خصبة بصورة استثنائية، ويوجد بها الذهب متبلورًا تحت الأرض في أكوام التراب، ولا يحتاج إلى صهر بالنار لاستخراجه من ترابه الخام، بل إنه ذهب بِكر يسمى ذهبًا غير منصهر، إذ يوجد بصورة بلورات أصغرها بحجم الثمرة[9].

والناس هناك يرتدون الذهب حول معاصمهم وأعناقهم إلى جانب الأحجار الكريمة الأخرى، ونتيجة لتوفر الذهب في أرضهم وندرة وجود الحديد والنحاس فإنهم يستبدلون الذهب بهذه المعادن من خلال تعاملهم مع تجار البلدان الأخرى، ويعد السبئيون أكثر قبائل العرب عددًا، ويقطنون ذلك الجزء من البلاد المعروف بـ (**Arabia felix**) أي العربية السعيدة، التي تنتج أكثر الأشياء التي تظل عزيزة علينا، ويتربى بها أصناف قطعان الماشية وأسرابها، وبما يفوق الوصف[10].

وفي الأراضي الداخلية من البلاد تنتشر غابات كثيفة من البخور المقدس والمر والنخيل الشذِي (الكاذي)، وقصب الطيب (قصب الذريرة) والقرفة وأعداد كبيرة من النباتات العطرية الأخرى، التي يستحيل حصر منافعها ومزاياها؛ نظرًا لتنوعها وثرائها بالمادة العطرية التي تنبعث من كلٍ منها، أو تلك المنبعثة منها جميعًا، إذ ينبعث من تلك البلاد أريج عطر إلهي، تعجز قوة الكلمات عن وصف أريجه العطري الذي يداعب الأنوف، ويحرك حواس كل إنسان، ويثير مشاعره، بل إن أولئك المبحرين بعيدًا عن الساحل لهم نصيب من الاستمتاع بعبق ذلك الأريج العطري الذي تحمله رياح الصيف التي تهب من تلك البلاد، إذ يجد المرء المبحر شذى الروائح العطرة العذبة تنبعث من الأشجار العطرية في تلك البلاد، وتتغلغل إلى أجزاء البحر القريبة من اليابسة[11].

ويذكر ديودوروس الصقلي أن عاصمة السبئيين (مأرب) تقع على ربوة،وأنه يتعاقب على حكمها وراثيًا ملوك من العائلة ذاتها، ويقدم لهم السكان بالغ الاحترام والتشريف والتبجيل، وهذه القبيلة (سبأ) في ثرائها وترفها وتبذيرها لا تتفوق على العرب المجاورين لها فحسب، بل على شعوب العالم قاطبة، وذلك أنهم فضلًا عن قيامهم بعملية التبادل التجاري، وبيعهم لمنتجاتهم الخاصة، يعملون في تجارة النقل(الترانزيت)، وجميع الذين يعملون في تجارة النقل يدفعون لهم

عائدًا (رسومًا) نظير قيامهم بعملية التبادل التجاري، كما أنهم حققوا أرباحًا خيالية مقابل تجارتهم في نفائس السلع، وكل ما خف وزنه وغلا ثمنه[12].

ونتيجة لتوافر الذهب والفضة في بلادهم بغزارة وبخاصة في سبأ المشيد بها القصر الملكي، فإن لديهم شتى الآنية والكؤوس المصنوعة من الذهب والفضة، المزخرفة بأصناف الرسوم والأشكال، والأسّرة والقوائم الثلاثية الأرجل (مثلثة القوائم) المصنوعة من الفضة، وكل قطع الأثاث الفخمة الأخرى والنفائس الثمينة التي لا يصدقها العقل، والفسحات المحاطة بالأعمدة الكبيرة المطلي بعضها بالذهب، وأخرى ذات تيجان منمقة بأشكال مصورة من الفضة، وسقوفها وأبوابها مفصلة بألواح خشبية، وخزائنها مصنوعة من الذهب،ومرصعة بالأحجار الكريمة المرصوص بعضها إلى جوار بعضها؛ مما جعل شكل كل جزء في منازلهم أعجبوبة في نفاسته وفخامته، بل إن أجزاءً من منازلهم تم تشييدها من الذهب والفضة، وأجزاءً أخرى من العاج، وأكثرها مرصعة بالأحجار الكريمة؛ وفقا لمنزلة الرجال ذوي الاعتبار العالي[13].

وفي الحقيقة، فإن هذا الشعب (سبأ) تمتع بسعادة لم تزعزع منذ عصور سحيقة من الزمن؛ لأنهم كانوا بعيدين كلية عن أولئك الذين يقودهم جشعهم ورغبتهم إلى امتلاك ما هو ملك لغيرهم، وشعورهم بأن ثروة الآخرين إنما هي هبة إلهية لهم[14]؛ من أجل ذلك قرر القيصر الروماني (أغسطس قيصر) غزو أرض سبأ، وجرد حملة عسكرية كبرى بقيادة الوالي الروماني على مصر إليوس جالوس عام 24 ق.م، وتألفت الحملة من عشرة آلاف جندي روماني، شاركهم في هذا الغزو ألف من الأنباط العرب، بقيادة الوزير النبطي صالح (سيلايوس)، وخمسمائة جندي من اليهود[15].

ويتحدث سترابو - **Strabo**-(64 ق.م -19 م)، مؤرخ هذه الحملة وصديق قائدها (إليوس جالوس) عن أهداف الإمبراطور الروماني (أغسطس قيصر) من غزو مملكة سبأ بقوله: "وكان هدفه إما أن يتغلب على أعداء أغنياء، وإما أن يكسب أصدقاء أغنياء"[16]. وهم السبئيون وقد فشلت تلك الحملة فشلًا ذريعًا، وقتل معظم أفرادها في أرض السبئيين، ولم يعد منها سوى قائدها، وبعض مرافقيه، وعدد قليل من أفراد الحملة[17].

ويحدثنا صاحب كتاب (الطواف حول البحر الإرثيري) – **The Periplus of the Etythreansea**- وهو كاتب يوناني مجهول عاش في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي، عن الأقمشة والملبوسات والآنية المنزلية التي كانت تباع في سوق مدينة موزع في محافظة تعز بقوله: أما البضائع التي كانت تباع في سوق مدينة موزع فهي الأقمشة الأرجوانية الناعمة والخشنة، وملابس تمت خياطتها على نمط الزي العربي ذات الأكمام العادية منها والمطرزة أو الموشاة بالذهب، والزعفران، وقصب الذريرة، وأنسجة القطن الشفافة، والأعبئة والأحرمة العادية والمصنوعة على الطراز المحلي، والأوشحة ذات الألوان المتعددة، والدهون، والمراهم المعطرة، والخمور، والحنطة. وتهدى للزعيم (القيل) أو الملك الخيول والبغال القوية والآنية المصقولة المصنوعة من الذهب والفضة والأقمشة ذات الحياكة الراقية والآنية النحاسية، وتصدر البلاد حاصلات أرضها مثل: فاخر المر، والصمغ المعيني القتباني، والرخام[18].

وعرف العرب،ومنهم السبئيون، لدى الشعوب الأخرى بالأمانة والحفاظ على العهود والمواثيق، فقد ذكر هيرودوتس (**Herodotus**) (485-425 م.ق): "إنه ليس من بين الشعوب من يحافظ على العهود والمواثيق ويحترمها مثل العرب، وذلك من عاداتهم"[19].

ويذكر هيرودوتس أن الملك الفارسي قمبيز (529-522ق.م)، بعد أن تمكن من غزو مصر، أرسل رُسله إلى العرب للحصول منهم على التأمين والتعاون في المرور عبر بلادهم، فأجابوه إلى ذلك، وملأ العرب الجلود بالماء وحملوها على ظهور الجمال وأرسلوها إلى الأرض الجافة لانتظار جنود قمبيز لتزويدهم بالماء[20]؛ احترامًا للعهود والاتفاق المبرم بينهم وبين (قمبيز)، ويؤكد هيرودوتس أن قمبيز لم يكن بوسعه مطلقًا غزو مصر دون موافقة العرب ومساعدتهم[21]. ولم تكن سيطرة سبأ تمتد إلى شمال الجزيرة خلال تلك المدة، وربما يقصد هيرودوتس بذلك العربَالمعينيين الذين كانوا يبسطون سيطرتهم في القرن السادس قبل الميلاد حتى دادان(العلا) في شمال الحجاز، التي كانت مركزا ومحطة تجارية معينية على طريق القوافل التجارية.

ويصف ثيوفراستوس – **Theophrastus**- (372-287) م.ق، أمانة العرب السبئيين وتعاملهم بقوله: والسبئيون أناس أمناء في تعاملهم فيما بينهم ومع الآخرين؛ لدرجة أنه لم يكن أحد يبقى منهم لحراسة أشجار البخور والمر، حتى أن بعض الرحالة والبحارة الغرباء كانوا يأخذون في سفنهم بعضًا من البخور والمر بسبب عدم وجود من يحرسها، كما أنهم في تعاملهم التجاري يقومون بجمع أعواد البخور والمر في مجاميع محدودة على صورة حزمات مستقلة، ويضعونها في المعبد لدى حراس المعبد، ويضعون على كل حزمة لوحة مكتوب عليها سعر هذه الحزمة، وعند مجيء التجار يشاهدون تلك الحزمات وأسعارها المدونة عليها، فإذا أعجبتهم حزمة منها يأخذونها ويضعون ثمنها في مكان الحزمة، فيأتي المالك ليأخذها بعد أن يكون كاهن المعبد قد خصم الثلث من ثمن الحزمة للآلهة ويترك الباقي في مكان الحزمة حتى يأتي المالك لاستلامه[22]. وذلك يدل على الثقة والأمانة وحسن التعامل التجاري لدى المجتمع السبئي.

وتفيد الدراسات النقشية أن مملكة سبأ، خلال الألف الأول قبل الميلاد، بلغت درجة عالية من الرقي في نظام الحياة الاجتماعية والمدنية، وعرفت النظم النيابية المتطورة، إذ كانت توجد بها مجالس نيابية تمثل الشعب تمثيلًا نيابيًا، أبرزها مجلس الملأ السبئي[23].

ثانيًا: بعض مظاهر الثراء والازدهار الحضاري في المصادر الإسلامية

استعرضنا فيما سبق بعضًا مما أورده الكتاب اليونان عن ثراء العرب السبئيين وخصب أرضهم وازدهارهم الحضاري ورقي أساليب عيشهم وتمدنهم وحسن تعاملهم،وسنستعرض فيما يأتي ما قيل عن السبئيين في بعض المصادر الإسلامية؛ وذلك لمعرفة مدى تقارب المعارف الواردة فيها عن السبئيين مع ما ورد في المصادر اليونانية.

وأول المصادر الإسلامية وأصدقها هو القرآن الكريم الذي تحدث عن السبئيين في قوله **تعالى** ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾ سورة (سبأ:15). ذلك فيما يتصل بخصب أرض السبئيين وثمارها وبساتينها.

وقوله تعالى ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾سورة (النمل:24). وتشير الآية بوضوح إلى ملكة سبأ وما كانت عليه من الملك، وأنها أوتيت من كل شيء، ولها عرش عظيم[24].

وأما ما يدل على ما كانت عليه مملكة سبأ من القوة والمنعة والحياة النيابية الشوروية فنجده في حوار ملكة سبأ مع مجلس الملأالسبئي في قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (النمل:33)

ويشير القرآن الكريم إلى ما كانت عليه ملكة سبأ من الدهاء والحكمة والحرص على مصلحة شعبها، فعلى الرغم من القوة الكبيرة التي كانت تحت تصرفها، فهي لم تهور وتندفع متأثرة بغرور القوة نحو خيار الحرب، وتزج بجيشها وشعبها في أتون حرب لا يحمد عقباها مع النبي سليمان عليه السلام، فكان رد الملكة على مستشاريها وقادة جيشها كما جاء في قوله تعالى على لسان ملكة سبأ ذاتها: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (النمل:34،35).

وبعد أن عرفنا ما جاء في القرآن الكريم عن مملكة سبأ، نأتي على ما أوردته بعض المصادر الإسلامية الأخرى عن تلك المملكة، وما كانت عليه من الخصب والقوة ورغد العيش والازدهار الحضاري.

ولنبتدئ بما ذكره المسعودي (ت 346هـ) في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر: "إن أرض سبأ كانت من أخصب أرض اليمن وأثراها وأغدقها وأكثرها جنانًا وغيطانًا وأفسحها مروجًا، بين بنيان وجسر، مقيم وشجر موصوف ومساكب للماء متكاثفة وأنهار[25] متفرقة،...، وأن الراكب أو المار كان يسير في تلك الجنان من أولها إلى أن ينتهي إلى آخرها لا يرى جهة الشمس ولا يفارقه الظل؛ لاستتار الأرض بالعمارة والشجر واستيلائها عليها وإحاطتها بها، فكان أهلها في أطيب عيش

وأرفهه، وأهنأ حال وأرغده، وفي نهاية الخصب وطيب الهواء، وصفاء الفضاء، وتدفق المياه، وقوة الشوكة واجتماع الكلمة، ونهاية المملكة، فكانت بلادهم في الأرض مثلًا، وكانوا على طريق حسن من اتباع شريف الأخلاق، لا يعاندهم ملك إلا قصموه، ولا يوافيهم جبار في جيش؛ فذلت لهم البلاد وأذعن لطاعتهم العباد، فصاروا تاج الأرض"[26].

وفي خصب بلاد اليمن،ومنها سبأ، يقول ابن الفقيه(أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني ت365هـ):"وباليمن من أنواع الخصب وغرائب الثمر، وطرائف الشجر ما يستصغر أن ينبت في بلاد الأكاسرة والقياصرة"[27].

أما (ابن رسته ت291 هـ) فيصف ما كانت عليه بلاد سبأ من الخصب والنماء والثراء بقوله:"... إنها كانت مدينتين عظيمتين، طول كل مدينة منها أكثر من مسيرة يوم، متقابلتين، فيها أنواع الفواكه والثمار، ذات أشجار ملتفة وجنات كثيرة، وكان السائر يسير بين أشجارها المثمرة وعلى رأسه مكتل فلا يمشي إلا قليلًا حتى يمتلئ المكتل من ثمار تلك الأشجار من غير قطف ولا التقاط، وكان أهلها يتفاخرون بالضياع السنية والأبنية العجيبة والنفقات الكثيرة، إذ كانوا أغنياء...، فلم يكونوا يرون لأحد على أنفسهم طاعة إلا لمن قد ملكوه على أنفسهم وانقادوا لرئاسته"[28].

وفي مكان آخر يعدد لنا ابن رسته أصناف الفواكه والثمار والعسل المتوفر بكثرة في بلاد اليمن، ومنها سبأ، بقوله: "... وعندهم فواكه سرية مثل أنواع التفاح والبرقوق وهو المشمش، والفرسك أنواع وهو الخوخ، ومن أنواع الإجاص ما ليس بخراسان، والكمثرى أنواع كثيرة، وعندهم على ما زعموا قريب من سبعين لونًا عنبًا، وعندهم النخيل في قراها دون قصبتها، والموز عندهم كثير في كل موضع يدرك، والموز عندهم في كل أربعين يومًا تقطع ثمرته ولا ينقطع القطاف عندهم أبدًا، وعندهم باقلّوطب وقصب سكر وجوز ولوز وفستق ورمان وتين وسفرجل، وبطيخ حسن غير طيب يؤكل مع السكر، والقثاء، وأنواع الخضروات، والأترج عندهم كثير كبار حلو الطعم، وألوان الرياحين والورود والياسمين والنرجس والسوسن ألوان وربما وجدت كلها في وقت واحد، وعندهم العسل الكثير..."[29].

وأما (القلقشندي ت821 هـ) فيصف لنا ما كانت عليه بلاد اليمن،ومنها سبأ، من المدنية والرخاء والازدهار الحضاري بقوله: "إن لأهل اليمن سيادات بينهم محفوظة، وسعادات عندهم ملحوظة، ولأكابرها حظ من رفاهية العيش والتنعم والتفنن في المأكل: يطبخ في بيت الرجل منهم عدة ألوان، ويعمل فيها السكر والقلوب، وتطيب أوانيها بالعطر والبخور، ويكون لأحدهم الحاشية والفاشية، وفي بيته العدد الصالح من الإماء، وعلى بابه جملة من الخدم والعبيد والخصيان من الهند والحبوش، ولهم الديارات الجليلة والمباني الأنيقة..."[30].

ويتحدث (ابن كثير ت774 هـ)عن أهل اليمن،ومنهم السبئيون، بقوله: "... وكانوا في غبطة عظيمة وعيش رغيد وأيام طيبة حتى ذكر قتادة وغيره أن المرأة كانت تمر بالمكتل على رأسها فيمتلئ من الثمار مما يتساقط فيه من نضجه وكثرته"[31].

وقد استطاع الإنسان اليمني القديم، وبخاصة في مملكة سبأ، وبعبقريته الفذة أن يوسع من رقعة الأرض المزروعة ويطور أنظمة الري بأساليب لا تزال تذهل العالم إلى يومنا هذا، إذ استغل هطول الأمطار، لاسيما في فصل الصيف،التي كانت تنجم عنها سيول غزيرة تهبط من المرتفعات، وكانت تذهب هباءً، ففكر اليمني القديم بوسائل ممكنة من أجل السيطرة على تلك السيول والإفادة منها لري الأرض الزراعية، وبخاصة في فصل الشتاء الذي لا تهطل فيه الأمطار؛ لذلك جاءت فكرة بناء السدود والحواجز والمآجل التي أقامها اليمنيون القدماء لحجز مياه السيول المتدفقة في فصل الصيف، ومن أشهر السدود التي عرفت في اليمن القديم سد مأرب في مملكة سبأ، الذي كانت تتصل به شبكة من قنوات الري التي تم بناؤها بصورة هندسية متطورة نالت إعجاب المهندسين في العصر الحديث، إذ كانت تلك القنوات تنقل المياه إلى مسافات بعيدة؛ لتروي مدرجات زراعية مرتفعة، ومساحات واسعة من الأرض الزراعية[32].

أما البناء فقد استكمل تطوره وفنه المعماري، إذ كانت الصخور الرخامية الكبيرة تنحت نحتًا منتظمًا ويبنى بها بطريقة لا يكاد يتبين منها تعدد الأحجار واصطفاف بعضهاإلى جوار بعض، وكانت تتماسك عن طريق بعض الأوتاد الرصاصية التي كانت تربط المداميك عن طريق ثقوب،

كما لاحظ ذلك (جلازر) في سد مأرب، وهي الطريقة المرجح استعمالها في بناء قصر غمدان[33] الذي كان مشيدًا في صنعاء ضمن مملكة سبأ، وكان قصرًا عجيبًا بني على أربعة أوجه، وجه بالجروب الأبيض، والآخر بالجروب الأصفر، والوجه الثالث بالجروب الأحمر، والرابع بالجروب الأخضر[34]. ويقصد بالجروب الحجارة.

وتم بناء قصر غمدان بصورة متقنة من سبعة سقوف بين كل سقفين أربعون ذراعًا، وسقفه من رخامة واحدة، ووضع في كل ركن من أركانه تمثال أسد، فكانت الريح إذا هبت من ناحية تمثال من تلك التماثيل دخلت جوفه من دبره ثم خرجت من فمه فيسمع له زئير كزئير الأسد، وكان يؤمر بالمصابيح فتسرج في بيوت الرخام إلى الصبح؛ فكان القصر يلمع من ظاهره كلمع البرق[35].

ويذكر (الهمداني ت:350 هـ)أن اليمن عُرفت ببلاد القصور التي ذكرتها العرب في الشعر والمثل، ومن أشهرها وأقدمها: غمدان، سلحين، ناعط، صرواح، ظفار، هكر، ظهران، شبام، غيمان، بينون، يام براقش، معين، روثان، إرياب، هند، هنيدة، عمران[36].

واهتم قدماء اليمنيين ببناء المعابد وأولوها عناية خاصة، ومما يدل على ذلك ما ذكره (بليني) من أن الحاضرة شبوة كانت تضم ستين معبدًا داخل أسوارها، وكان يوجد في العاصمة القتبانية (تمنع) خمسة وستون معبدًا[37].

مما تقدم نجد أن هناك اتفاقا أو تقاربا كبيرا يصل إلى درجة التطابق بين المصادر اليونانية والمصادر الإسلامية المدونة فيما يتصل بالمعارف التي وردت في كل منها بشأن المجتمع السبئي، وما كان عليه من الثراء والرخاء والخصب والقوة والمنعة، والازدهار الحضاري، وتطور الحياة المدنية، ورغد العيش، وفخامة البناء، وحسن التعامل الأخلاقي، وبخاصة مع الغرباء، فضلًا عن الأمانة التي عرف بها ذلك المجتمع، واحترامه للعهود والمواثيق.

وبذلك نجد أن المعارف الواردة في المصادر الإسلامية عن رخاء المجتمع السبئي، وازدهار حضارته قبل الإسلام ليست ضربًا من الخيال والخرافات، كما يرى بعض المستشرقين وغيرهم،

بل هي حقائق تاريخية سبق أن أكدتها المصادر اليونانية منذ النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد، فضلًا عن المصادر والدراسات النقشية الأثرية الأخرى.

الهوامش والإحالات:

(1) الجرهاء: مدينة تقع على الساحل الشرقي لجزيرة العرب المطل على الخليج العربي على ساحل الأحساء، مقابل جزيرة تيلوس (البحرين)، وكان الجرهائيون تجارًا نشطاء، فقد عملوا في طيوب وسلع اليمن وبضائع الهند والشرق الأقصى وإفريقيا، وكانت الجرهاء مركزًا تجاريًا مهمًا وسوقًا من الأسواق المهمة في بلاد العرب، ينظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1977: 14، 15.

(2) Ahistory 'in: Bunbury,E, H,Ahistor of ancient geography, amon the Greek and Roman from the Erliest Ages antil the fall of the Rom Empir, Newyork, 1932,VOL(2): 58.

(3) Agatharchides 'in: Bunbury,E, Ahistory ،VOL (2): 58 -59.

(4) Agatharchides 'in: Bunbury,E, A history،VOL (2): 59.

(5) Ibid،VOL (2): 59.

(6) Eratosthenes. in: Strabo. The Geography of stabo, translated by, Horace leonard Jones, the loeb classical library, London, 1966. VOLL,VII BXVI,9.Ch: 2.3.

(7) Artemidorus,in: Strabo, The Geogruphy of Strabo, 1966,B.XVI,4.Ch: 19.

(8) Artemidorus,in: Strabo,B.XVI,4.Ch: 19

(9) Diodorus of sicily، libiray of History, translated by, C.H.Old father, Cambridge University press,1960.ch: 45

(10) Diodorus of sicily, Ch: 45-46

(11) Diodorus of sicily, Ch: 46

(12) Ibid,Ch: 46

(13) Ibid, Ch: 46

(14) Ibid, Ch: 46

(15) ينظر: أحمد صالح محمد العبادي، اليمن في المصادر القديمة اليونانية والرومانية (485.ق.م-100م)، وزارة الثقافة: صنعاء، د.ط، 2004م: 177، 178.

(16) Strabo, The Geography of Strabo,XVI, 4,Ch: 22.

(17) لمزيد من المعلومات حول حملة إليوس جالوس وأهدافها وسيرها وأسباب فشلها ونتائجها، ينظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: 2/46-56، أحمد صالح العبادي، الأطماع الأجنبية في اليمن قبل الإسلام، 24 ق.م -628م، رسالة ماجستير، كلية التربية ابن رشد، جامعة بغداد، 2001م، الفصل الأول.

(18) The periplus of the Erythrean sea translated- by، Wilfred, H, Schoff, New York، 1912, Ch: 24.

(19) Herodotus, Historia, translated by, A.D. Godley, Theloeb classical library, Harvard University Cambridge(df)، Book, II.Ch: 4.

(20) Herodotus, Historia, Book.III,Ch: 7.8

(21) Ibid, Book, III.Ch: 88.

(22) Theophrastus, Enquiry into plants, translated by classical library in Two Volumes, London (?)، Vol, II, Book، IX.Ch.IV.

(23) فؤاد حسنين علي، الاستكمال لكتاب التاريخ العربي القديم،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة، د.ط، د.ت: 247، لمزيد من المعلومات عن المجالس النيابية في اليمن القديم، ينظر: لونين. أ.ج، مجلس الشيوخ السبئي في الألف الأول قبل الميلاد، ترجمة: قائد محمد طربوش، مجلة الحكمة، العدد (215-216)،اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين: صنعاء،1999م: 269،285.

(24) ما يزال معبد الشمس أو محرم بلقيس (معبد الإله المقه، أوام) ماثلا حتى اليوم في مدينة مأرب التي كانت عاصمة مملكة سبأ، ويعد هذا المعبد من أشهر معابد اليمن القديم وهو بناء يبلغ طوله نحو (6، 86) مترًا، ويمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وارتفاعه (9,5) أمتار، نيلسن، ديتلف،الديانة العربية القديمة، ضمن كتاب: التاريخ العربي القديم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ط، د.ت: 177.

(25) يقصد بالأنهار السيول الكبيرة التي كانت دائمة الجريان، وبعضها ما يزال موجودا حتى اليوم في بلاد اليمن، فمن المعروف أنه لا توجد أنهار في الجزيرة العربية وخاصة جنوب الجزيرة العربية. ينظر: ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (ت:291 ه)، كتاب الأعلاق النفيسة، ليدن، 1891م: 38/7، عمر رضا كحالة،جغرافية شبه جزيرة العرب،المطبعة الهاشمية، د.ت: 322

(26) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت 346ه)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، د.ط، د.ت: 180/2-181.

(27) ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني (ت 365ه)، مختصر كتاب البلدان، ليدن، 1302ه: 34.

(28) ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (ت 291ه)، كتاب الأعلاق النفيسة: 114/7.

(29) المصدر نفسه: 111/7.

(30) القلقشندي، الشيخ أبو العباس أحمد (ت 821ه)، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، د.ط، 1951م: 7/5.

(31) أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت 774ه)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبدالواحد، بيروت، ط3، 1987م: 10/1.

(32) ينظر: جنتل بيير، السيطرة على الري، ضمن كتاب اليمن في بلاد ملكة سبأ، ترجمة بدر الدين عرودكي، راجعه يوسف محمد عبدالله، معهد العالم العربي، باريس، دار الأهلي، دمشق، د.ط، 1999م: 76، أحمد سوسة، تاريخ حضارة وادي الرافدين، المجمع العلمي العراقي، د.ط، د. ت: 335/1.

(33) جرومان أدولف، الناحية الأثرية لبلاد العرب الجنوبية، ضمن كتاب التاريخ العربي القديم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ط، د.ت: 151.

(34) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت310ه)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1960م: 568/1.

(35) الطبري، تاريخ الرسل والملوك: 568/1، ابن الفقيه، البلدان: 34-35.

(36) الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (ت: 350ه)، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، د.ط، 1990: 322.

(37) Pliny, Natueral History, translated by, H, Rackham,- M,A, William heinemannltd, London,1969, Vol، II, Book.XI: 453.